مفهوم الوظيفية في اللّسانيات الغربية

أ. محمد بودية

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز المفهوم الحقيقي لمصطلح الوظيفية(fonctionnalisme le)، وذلك من خلال شرح أهم ما جاء به أعلام حلقة براغ، والمدرسة الفرنسية، وهم: تروبتسكوي، وجاكبسون، وأندريه مارتينيه.

كما نركّز في هذه الدراسة على محور النظرية الوظيفية، وهو البعد التواصلي للغة، ذلك أنّ كلّ المفاهيم التي قدّمها أصحاب هذه النظرية، تدور حول هذا البعد. فكلّ ما يسهم في هذه العملية التواصلية التبليغية ينتمي إلى اللغة، وكلّ ما لا يخدم هذه الوظيفة، فهو خارج عنها .

ونبيّن في الأخير أهمّية المعنى في الدراسة الوظيفية، وذلك من خلال شرح المنحى الوظيفي عند زعيم مدرسة لندن"فيرث" (Firth)).

مقدمة:

أخذت الدراسات اللسانية بعد "فرديناند دو سوسير" منحا تطوريا خاصا، وذلك أنّ أغلب اللسانيين الذين جاؤوا بعده اعتمدوا على مبادئه وأفكاره التي أرساها في كتابه "محاضرات في اللسانيات العامة"، وهو الكتاب الذي أحدث تحوّلا جذريا في مسار العلوم الإنسانية عامّة والدّراسات اللسانية بخاصّة.

غير أنّ هؤلاء اللّسانيين لم يتوقّفوا عند حدود الدراسة التي جاء بها "فرديناد دو سوسير"، وإنّما بذلوا جهودا كبيرة في تطويرها ، والتدقيق والتفصيل فيها. وهو ما أنتج نظريات ومدارس سعت جاهدة إلى الكشف عن أسرار النظام اللغوي وخصائصه، وكيفية إنتاجه وفهمه. ومن هذه النظريات النظرية الوظيفية التي ركّزت على البعد الوظيفي والتواصلي للغة.

١- تعريف الوظيفية لغة:

تنسب لفظة الوظيفية إلى الوظيفة، وإذا تتبعنا مصطلح الوظيفة في المعاجم العربية، فإننا نجد لها معان متعددة. يجمعها ابن منظور في معجمه الشهير لسان العرب قائلا: « الوظيفة من كل شيء ما يقدّر له في كل يوم من رزق أو طعام أو علف أو شراب، وجمعها الوظائف والوُظف، ووظف الشيء على نفسه ووظفه توظيفا ألزمها إياه، وقد وظفت له توظيفا على الصبي كل يوم حفظ آيات من كتاب الله عز وجل. والوظيف لكل ذي أربع: ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق.

ووظيفا يدي الفرس:

ما تحت ركبتيه إلى جنبيه، ووظيفا رجليه، ما بين كعبيه إلى جنبيه، وقال ابن الأعرابي: الوظيف من رسغي البعير إلى ركبتيه في يديه، وأما في رجليه فمن رسغيه إلى عرقوبيه، والجمع من كل ذلك أوظفة ووظُف. ووظفت البعير أظفه وظفا إذا أصبت وظيفه.

الجوهري:

الوظيف مستدق الذراع والساق من الخيل والإبل ونحوهما، والجمع الأوظفة، وفي حديث حدّ الزنا: فنزع له بوظيف بعير فرماه به فقتله، قال: وظيف البعير خفّه وهو له كالحافر للفرس.

وقال الأصمعي: يستحب من الفرس أن تعرض أوظفة رجليه وتحدب أوظفة يديه، ووظفت البعير إذا أقصرت قيده، وجاءت الإبل على وظيف واحد إذا اتبع بعضها بعضا كأنّها قطار، كل بعير رأسه عن ذنب صاحبه.

وجاء يظفه أي يتبعه، عن ابن الأعرابي. ويقال: وظف فلان فلانا يظفه وظفا إذا اتبعه، مأخوذ من الوظيف، ويقال إذا ذبحت وظيفة فاستوظف قطع الحلقوم والمرئ والودجين أي استوعب ذلك كلّه، هكذا قال الشاخصي في كتاب الصيد والذبائح، وقوله:

أبقت لنا وقعانُ الدهر مكرمة ما هبّت الريح والدنيا لها وظُف

أي دول. وفي التهذيب هي شبه الدول مرّة لهؤلاء ومرّة لهؤلاء جمع الوظيفة»(١). ما يمكن أن نلحظه على هذه المعاني، أن كلمة الوظيفة وإن تعددت معانيها، فإنها لم تخرج عن كونها ما لازم الشيء فأصبح جزءاً منه. أو ما اعتاده الكائن فلم يستطع التخلي عنه، سواء كان في تركه ضرر وهلاك، كالطعام والشراب للإنسان والحيوان، أو لم يكن ذلك.

٢-الفكر اللّساني للمدرسة الوظيفية

ظهر مصطلح الوظيفية (le fonctionalisme) في اللسانيات مع حلقة براغ(٢) (cercle linguistique de prague)، وهي جمعية تأسست سنة ١٩٢٦ من قبل مجموعة من اللسانيين، كان في مقدّمتهم الأمير الروسي "تروبتسكوي نيكولا سيرجيفتسن " (Troubestkoy.N.sergvitch)، ورومان جاكسون (R.Jakobson) وكرسيفسكي (karcevski). كما ضّمت فئة من اللسانيين التشكيين أمثال .ف. ماتسيوس (V.Mathesius) وب. ترنكا (B. Trinka). وب. هافرينكا، وموكاروفسكي الذي كان منظرا في مجال الدرس الأدبي(٣).

وقد تجلّت أفكار هذه الحلقة من خلال المؤتمر الدولي للسانيين، الذي انعقد بلاهاي سنة ١٩٢٨(٤). وبالرغم من أنّ مؤسسي حلقة براغ اتّخذوا الأفكار البنيوية التي جاء بها "فرديناد دوسوسير" منطلقا لدراساتهم، إلاّ أنّ أهم شيء ركّزوا عليه وجعلوه محور تحاليلهم، هو الوظيفة الأساسية للغة، ألا وهي وظيفة التبليغ والتواصل (la Communication) "فإذا كان دور اللغة هو توفير أسباب التواصل، فإن دراسة اللغة ينبغي أن تراعي ذلك، فكل ما يضطلع بدور في التواصل ينتمي إلى اللغة، وكل ما ليس له هذا الدور فهو خارج عنها. وبعبارة أخرى فإنّ العناصر اللغوية هي التي تحمل شحنة إعلامية، أما التي لا يمكن أن نعتبرها ذات شحنة إعلامية فلا يعتد بها اللغوي، فالأولى وحدها هي التي لها وظيفة"(٥).

فاللغة بمفهومها الوظيفي عند أصحاب حلقة براغ، تمثل مجموعة من العناصر تنضوي تحت مستويات صوتية، وتركيبية ودلالية ولا يمكن دراسة هذه العناصر إلاّ في إطار ما تؤدّيه من وظائف مختلفة تسهم في تحقيق عملية التواصل، ومن ثم فإن اللّساني لا ينظر اللغة إلاّ "كما ينظر المرء إلى محرك محاولا أن يفهم أجزاءه المختلفة، وكيف تحدّد طبيعة جزء معين طبيعة الأجزاء المختلفة"(٦).

وإذا كانت اللغة عند "فرديناد دوسوسير" نظاما، فإن هذا النظام عند حلقة براغ "يتكون من وسائل تعبيرية تؤدي وظيفتها في تشجيع الفهم المتبادل، ولذلك ينبغي على اللسانيين أن يدرسوا الوظيفة الفعلية لأحداث النطق الملموسة، ما الذي يجري توصيله؟ وكيف؟ والى من؟ وفي أي مناسبة؟"(٧).

وإذا كان أعلام حلقة براغ قد أفاضوا في شرح الجانب الوظيفي للغة، إلاّ أنّ مفهوم الوظيفة عندهم لم يتحدد بشكل واضح إلاّ مع ما جاء به اللغوي الفرنسي "أندريه مارتينيه" (Martinet A.). ويمكن أن نتبيّن معالم المنهج الوظيفي عند اللسانيين الغربيين –في بدايته– من خلال استعراض ما جاء به أهم أعلام الوظيفية وهم: تروبتسكوي وجاكبسون وأندريه مارتينيه.

أ- الوظيفية عند تروبتسكوي:

ولد "تروبتسكوي" سنة ١٨٩٠ من عائلة عريقة تنتمي إلى أمراء روسيا، حيث كان والده عميد جامعة موسكو.

ومنذ أن بلغ السنة الخامسة من عمره عكف على الدراسات اللغوية، مما ساعده على تعلم لغات متنوعة، وأهّله لأن يشغل منصبا تعليميا بجامعة موسكو سنة ١٩٠٥. غير أنّه لم يستقر في هذا المنصب بل انتقل إلى فيينا سنة ١٩٢٢ ليصبح مدرِّسا في جامعتها فقه اللغة

السلافية والأدب الروسي إلى أن توفي سنة ١٩٣٨ (٨).

بدأت ملامح التوجه الوظيفي لتروبتسكوي تظهر انطلاقا من المؤتمر العالمي للألسنية الذي انعقد بلاهاي سنة ١٩٢٨ حيث سمح له هذا المؤتمر أن يكون المؤسّس الحقيقي لعلم "الفونولوجيا" (la phonologie) كما مكّنه من طرح مجموعة من الأسس التي يتم الاعتماد عليها في التمييز بين الفونتيكا (la phonétique) بوصفها علما طبيعيا فيزيائيا "يختص بدراسة الجانب الفسيولوجي في الصوت الإنساني ويعتمد في بياناته على الأجهزة والآلات"(٩). وبين الفونولوجيا بوصفها علما يعنى بدراسة الأصوات اللغوية أثناء الأداء الفعلي للكلام، أي الأصوات من حيث خصائصها الوظيفية في الخطاب المنجز بمعزل عن طبيعتها الفيزيولوجية والفيزيائية.

ولذا فإنّ واسطة العقد في الفونولوجيا (علم الأصوات الوظيفي) هو الفونيم (phonéme) أو الوحدة الصوتية التي تلعب دورا تمييزيا وظيفيا.

وهكذا نجد أن الباحث الفونولوجي عند "تروبتسكوي" "لا يهتم بالخصائص النطقية والفيزيائية والسمعية للأصوات، باعتبارها هدفا في ذاتها، بل يهتم بها باعتبارها مجرد وسيلة لتحديد الصوت اللغوي في إطار اللغة الواحدة"(١٠).

وقد جمع تروبتسكوي أسسه الوظيفية في كتاب أصدره سنة ١٩٣٩ سماه "مبادئ الفونولوجيا" (Principes de phonologie) (١١).

حيث يعد هذا الكتاب المرجع الأول الذي يبّين معالم الدراسة الوظيفية للغة، وبخاصة المستوى الفونولوجي منها، إذ "أرسى تروبتسكوي في كتابه هذا" "دعائم نظام دقيق لتصنيف الأصوات الوظيفية، وبعبارة أخرى فإنّه يقدّم لنا نظاما يمكننا من معرفة النظام الصوتي في لغة ما، بدلا من أن نعالج تركيب نظامها الصوتي بالأسلوب الأمريكي، والمتمثل بعبارة (خذه أو دعه) على أساس أنه مجموعة من الحقائق المنفصلة"(١٢).

ولئن كان "فرديناد دوسوسير" قد سبق تروبتسكوي في التمييز بين مصطلحي "فونتيكا" و"فونولوجيا" إلاّ أنّ ما قدمه دوسوسير لم يكن قائما على أسس وظيفية، إذ جعل مصطلح "الفونتيك" يدل على العلم الذي يتناول الأصوات اللغوية بالدراسة التاريخية مبررا تطوراتها وتغيراتها عبر الزمن، "وهو بالتالي أحد الأقسام الأساسية لعلم اللغة، أما الفونولوجيا phonologie فتقوم في نظره على دراسة العملية الميكانيكية للنطق، وهي تقع خارج حدود الزمان، لأن جهاز النطق يبقى هو دائما نفسه، فالفونولوجيا ليست سوى نظام مساعد لعلم اللغة ولا يظهر إلاّ عند الكلام"(١٣).

- مفهوم الفونيم وخصائصه عند تروبتسكوي:

لاحظ تروبتسكوي أثناء دراسته الوظيفية (الفونولوجية) أنّ أيّ وحدة صوتية بإمكانها أن تدخل في تقابل مع وحدة أخرى، فتتميّز عن غيرها من الوحدات، وذلك بتأديتها لدور وظيفي يتمثل في تغيير المعنى. من هنا نشأ مفهوم الفونيم عند تروبتسكوي حيث عرفه قائلا: "هو أصغر وحدة في اللسان المدروس"(١٤).

إذ لا يمكن أن تتجزأ هذه الوحدة إلى وحدات أصغر منها، والفونيم عنده بمثابة العلامة المميزة إذ "لا يمكن لهذه العلامة أن تظهر في النظام اللغوي، إلا حينما تؤدي دورا وظيفيا، وبالتالي فالفونيم كما يقول تروبتسكوي "هو وحدة وظيفية قبل كل شيء"(١٥). وهو يختلف عن الصوت المفرد الذي يدرس من الناحية الفيزيائية والفيزيولوجية.

فصوت القاف – مثلا– عندما ينطق لوحده ليس له أهمية في إطار الدراسة الصوتية الوظيفية، بينما لو نظرنا إليه في جانبه التركيبي في كلمة "قال" وتمت مقابلته بصوت الصاد في كلمة "صال" لأمكننا القول إن كلا من الصاد والقاف وحدتان صوتيتان وظيفيتان.

وإذا كان الأساس الذي يعتمد عليه "تروبتسكوي" في تحديد ماهية الفونيم هو "الوظيفة" فإن مفهوم الفونيم عند "سوسير" يتعيّن انطلاقا من تصور آخر، إذ يعرفه بأنه: "مجموع التأثيرات السمعية والحركات النطقية للوحدات المسموعة والوحدات المنطوقة، كل منها بشرط الآخر"(١٦).

ومع أن تروبتسكوي ألحّ على الجوانب العضوية والسمعية في وصف الفونيم، إلاّ أنّه لم يعتبرها أساسا تقوم عليه الدراسة الوظيفية، وبالتالي لا يمكن أن يكون لها إسهاما في تحديد ماهية الفونيم.

ولكي يبيّن تروبتسكوي خصائص الفونيم ووجوه تأديته وضع مجموعة من القواعد تتمثل فيما يلي:

١- القاعدة الأولى: تتحقق هذه القاعدة عندما يأتي صوتان من لغة واحدة، وفي سياق صوتي واحد، ويمكن استبدال أحدهما بالآخر، دون أن يغيّر ذلك في معنى الكلمة، فيتم الحكم عندئذ على أن هذين الصوتين صورتان اختياريتان لفونيم واحد.

"ويعني أن الوحدة الصوتية الواحدة قد تتحصل ههنا بكيفيتين ولا أثر لذلك في معنى الكلمة من ذلك مثلا حرف R بالفرنسية الحديثة فإنّ بعض الناطقين الفرنسيين الفصحاء ينطقون بها مثل الراء العربية (وهو النطق الأصلي الفرنسي القديم) وأكثرهم مثل الغين العربية، فهما صوتان مختلفان وحرف واحد في الفرنسية حاليا، إذ لا يتغير المعنى بوقوع أحدهما مكان الآخر، وكل وجه منهما يسمى عند العلماء الأوروبيينVariant وAllophone عند الأمريكيين"(١٧).

٢- القاعدة الثانية: تظهر هذه القاعدة إذا جاء صوتان في موقع صوتي واحد، وعملية استبدال أحدهما بالآخر سيؤدي إلى تغيير معنى الكلمة، وينتج عنه غموض في المعنى، وعليه فإن الصوتين هنا يعتبران وحدتين صوتيتين مختلفتين، أو هما صورتان واقعيتان لفونيمين مختلفين. وهنا يكون التمييز بين هذين الوحدتين واقع على أساس "اختلاف الصوت واختلاف المعنى، والمعنى أمر مرتبط بالنظام اللغوي الواحد، فالكلمة لا تؤدي معناها إلاّ في لغتها، شبيه بهذا مقارنة الكلمتين (تين، طين)، اختلافهما في المعنى يقوم على اختلاف الكلمتين في الصوت الأوّل، ومعنى هذا أن إبدال أحدهما بالآخر يغير المعنى، لأنّ ذلك يؤدي إلى تكوّن كلمة أخرى بمعنى مغاير، ولو قال أحد الناس تين وهو يريد طين أو العكس لحدث لبس الفهم، ومن هنا نقول بأن التاء في العربية وحدة صوتية مستقلة والطاء وحدة مستقلة"(١٨).

٣- القاعدة الثالثة: تكون هذه القاعدة نتيجة لتقارب صوتي من حيث المخرج، أو من الناحية السمعية والنطقية فيعدّان الصوتان بذلك صورتين تركيبتين لفونيم واحد.

"وذلك كتلفظ العرب الفونيم /ن/ بصور صوتية مختلفة حسب موقع هذا الفونيم في الكلمة.

فالنون الساكنة قبل صوت أسناني(كالثاء) تنطق أسنانية، والنون الساكنة قبل صوت لهوي ك(القاف) تنطق لهوية.

وهكذا تتعدّد صور (النون) باختلاف الأصوات التالية لها لأنها لا يمكن في بيئة معينة، أن تحلّ صورة أسنانية محل صورة لهوية، لأن الفونيم –كما يقول "جونز" – في لغة ما عائلة من الأصوات متقاربة في خصائصها، وتستعمل بطريقة لا تسمح أن تستعمل أحدهما في البيئة الصوتية نفسها التي يستعمل فيها الآخر أبداً"(١٩).

ب. الوظيفية عند رومان جاكبسون:

ولد رومان جاكبسون بموسكو في ١١ تشرين الأول ١٨٩٦ من عائلة يهودية روسية عرفت باهتمامها الكبير بالعلوم المختلفة والثقافات المتنوعة، والذي انعكس بدوره على "رومان" فجعل له مكانة مميزة بين أصدقائه.

بدأت المرحلة التعليمية الأولى لـ: رومان جاكبسون في مؤسسة كبيرة تسمى "لازاريف" Lazareve. وهناك تأثّر بمجموعة من الأساتذة وبخاصة في مجال تعلم اللغات المختلفة، كالفرنسية والألمانية واللاتينية، مما أهله لأن يعمل مترجما في بعثة الصليب الأحمر، وذلك عندما غادر موسكو سنة ١٩٢٠ إلى براغ.

وقد كان لهذه المدينة بالذات دور كبير في تكوين شخصيته العلمية، إذ نال فيها الدكتوراه سنة ١٩٣٠، والتقى فيها –أيضا- بلسانيين كبار أسس معهم "حلقة براغ الألسنية" وكان ذلك في سنة ١٩٢٦، إلاّ أنّه لم يستقر ببراغ بل واصل رحلاته العلمية إلى أن توفي سنة ١٩٨٢(٢٠).

ويمكن اجمال المراحل العلمية في حياة جاكبسون فيما يلي:

١. مرحلة موسكو وهي مرحلة اليقظة الوثابة.

٢. مرحلة براغ: وهي فترة التأسيس، وتتميز بأن جاكبسون بدأ برنامجا منهجيا في اختياره ميادين عدّة ومحددة.

٣. المرحلة الأمريكية: وهي مرحلة توطيد الاكتشافات وتوسيعها ضمن إطار مناهج مقّننة"(٢١).

- الفونولوجيا عند جاكبسون:

ألف رومان جاكبسون كتابا أسماه "Essais de linguistique générale" (محاولات في اللسانيات العامة)(×)، وخصص قسما كبيرا منه للدراسة الفونولوجية، واشترك مع صديقه "تروبتسكوي" في نقطة أساسية تتجلى في التمييز بين الفونتيكا والفونولوجيا، إذ اعتبر أن "لفظة الفونولوجيا تطلق على مجموعة الوظائف اللغوية التي يؤديها الصوت، في حين تهدف الفونتيك إلى جمع المعلومات حول المادة الصوتية الخاصة من حيث خصائصها الفيزيائية والفيزيولوجية"(٢٢).

وكان أكثر ما اعتمد عليه رومان جاكبسون لتبيان الخصائص الفونولوجية المختلفة للأصوات اللغوية هو التحليل السمعي مستعملا أجهزة وآلات خاصة تساعد على دراسته للموجات الصوتية، واستطاع من خلال هذه الدراسة المتطورة أن يحدد الاختلافات التي يمكن أن تقع بين الوحدات الفونولوجية.

كما أولى جاكبسون أهمية للدراسة الفونولوجية التاريخية متتبعا التغيرات التي تحدث للوحدات الصوتية للغة ما تاريخيا، وهذا عكس ما نادى به "فرديناد دسوسير" الذي أعطى الأولوية لدراسة التنظيم الفونولوجي الآني للغة.

كما قاده التحليل السمعي والنطقي المعتمد على الأجهزة والآلات إلى اكتشاف مفهوم جديد، وهو مفهوم السمات التمايزية أو المائزة.

- مفهوم السمات التمايزية عند جاكبسون:

تتجلى السمات التمايزية عند جاكبسون حينما تكون هناك ثنائية فونمية، أو بمعنى آخر عندما يتقابل فونيم وآخر، (الفونيمات b/p يتقابلان في الفرنسية لأنهما يستخدمان في التمييز بينpierre و biére فتقابلهما لا يقوم إلاّ على سمة واحدة، وهو بالتالي ليس تقابلا كليا شاملا، وإنما ينحصر في العلاقة بين المجهور (b) وغير المجهور (p) فنحن لا يمكن أن نميز الفونيم المجهور إلاّ إذا كان هناك فونيم غير مجهور، وهذه الثنائية هي التي تجعل السمة أكثر وضوحا وأكثر بروزاً(٢٣).

وانطلاقا من هذا فإن التمييز الوظيفي عند جاكبسون لا يحدث باستبدال فونيم بفونيم آخر فقط، بل يحدث –أيضا– بهذه السمات التمييزية الخاصة، والتي هي أصغر من الفونيم، ذلك لأنّ الفونيم يتكون من ملامح (سمات) عدّة. وقد جمع جاكبسون هذه السمات من خلال دراساته السمعية في اثنتي عشرة سمة، من هذه السمات التضادات التالية: (مجهور/مهموس- غليظ/حاد- رخو/شديد- مزيد/غير مزيد- شفهي/غنّة- متكثف/منفلس- صائت/صامت..) (٢٤).

٣- النظرية التواصلية ووظائف اللغة:

لم يتكلّم "فرديناد دوسوسير" عن الدورة التواصلية بمعناها الكامل، إنّما تكلّم عن حلقة الكلام، وذلك بوجود شخصين "أ" و"ب" تكون عملية التواصل بينهما كما يلي(٢٥):

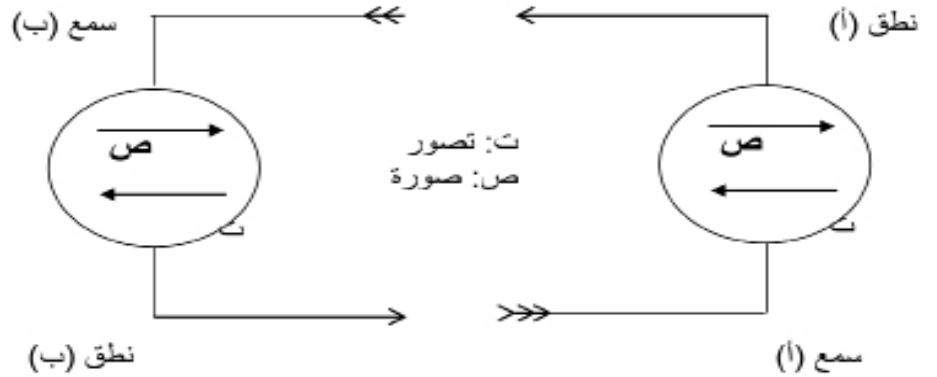

وقد استعمل "جاكبسون" هذا المفهوم السوسيري للدورة الكلامية ليطوّره إلى نظرية تواصلية تقوم على عناصر سته مشكلة كالآتي:

محتوى

مرسل.....مرسلة.....مرسل إليه

اتصال

نظام رموز

ويفهم من هذا المخطط أن كل فعل تواصلي كلامي يكون كما يلي:

"يرسل المرسل مرسلة إلى الملتقط وتتطلب المرسلة بادئا كي تكون فاعلة محتوى تشير إليه (هذا ما يدعوه البعض -أيضا- المرجع في تسمية غامضة بعض الشيء) وهذا المحتوى بإمكان الملتقط أن يفهمه، وهو إما كلامي وإما بالإمكان تحويله إلى كلام ومن ثم تتطلب المرسلة تنظيم رموز مشتركة كليا أو أقلّه جزئيا بين المرسل والملتقط، وتتطلب المرسلة أخيرا اتصالا، أي قناة فيزيائية، وارتباطا سيكولوجيا بين المرسل والملتقط، ويتيح الاتصال هذا التواصل والاستمرار" (٢٦).

وتتولد عن هذه العناصر الاتصالية الستة وظائف لغوية مختلفة يبرز من خلال كل وظيفة أحد العناصر.

مرجعية

تعبيرية (انفعالية).....شعرية.....ندائية

إقامة الاتصال

ما وراء اللغة

١- الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية: (Fonction emotive)

وتتمثل هذه الوظيفة في العلاقة التي تحدث بين المرسل والرسالة، كما يبرز من خلالها موقف المرسل، لأنّ الرسالة بطبيعتها تكشف عن صاحبها.

٢. الوظيفة الندائية: (Fonction conative)

تظهر هذه الوظيفة في الجمل التي توجه إلى المخاطب أو المتلقي، إذ تثير انتباهه وينتج عنها ردود أفعال معينة "كما تدخل الجمل الأمرية ضمن هذه الوظيفة." (٢٧).

٣. وظيفة إقامة الاتصال: (Fonction phatique)

نستطيع أن نتعرف على هذه الوظيفة من خلال بعض الألفاظ أو المؤشرات اللغوية التي تستعمل للحفاظ على الاتصال وإبقائه مثل هذه الألفاظ "ألو".

٤. وظيفة ما وراء اللغة: (Fonction methlinguistique)

يتم في هذه الوظيفة شرح ما غمض من المفردات، أو توضيح شفرة الاتصال، وتعتبر هذه الوظيفة "وظيفة واصفة اللغة" (٢٨).

إذ تكون اللغة هنا هي مادة الدراسة "ومن خلال هذه الوظيفة ننتقل من مستوى الخطاب العادي بين الأشخاص إلى مستوى الخطاب المتخصص العلمي الذي يتقنه العلماء والمختصون(٢٩).

٥. الوظيفة المرجعية: (Fonction néférentielle)

لهذه الوظيفة أهمية كبيرة، لأنها تجمع كافة العناصر التواصلية كما تتم من خلالها الإفادة والتبليغ، وذلك "عندما تحدد العلاقات

بين المرسلة والشيء والغرض الذي ترجع إليه"(٣٠).

٦. وظيفة إقامة الاتصال: (Fonction poetique)

تتجلى هذه الوظيفة في الجانب الفني الذي يمكن أن نلمسه في المرسلة، فالكلمات تكتسب –انطلاقا من هذه الوظيفة– قيمتها التأثيرية، "ويسميها جاكبسون الوظيفة الشعرية لأنّ الشعر بموسيقاه وصوره يمثل أو يصور أحسن تصوير الجانب الجمالي الموجود في اللغة(٣١).

ما يمكن أن نلحظه على هذه الوظائف الست، أنها تختلف في الأهمية، وهذه يمكن ردّه إلى اختلاف العناصر التواصلية فيما بينها من حيث الأهمية، كما يمكن أن تجتمع هذه الوظائف كلها في كلام واحد. ومثلما تطبق على المنطوق باستطاعتنا أن نطبقها على المكتوب.

٤. الوظيفية عند أندريه مارتينيه (Andre Martinet).

ولد "مارتينيه" سنة ١٩٠٨ في مقاطعة السافوا Savoie بفرنسا. تخصّص في اللغات الألمانية(٣٢). وتقلد مجموعة من المناصب، منها مدير المجلة اللسانية النيويوركية "الكلمة" (Word) وكان ذلك سنة ١٩٤٨، كما عمل أستاذا في السوربون بداية من سنة ١٩٦٠، ومديرا للدراسات العليا في معهد الدراسات العليا بباريس، كما شارك في أعمال نادي براغ الألسني.

تشكلت آراء مارتينيه الوظيفية في مجموعة من المحاور تمثلت فيما يلي:

ـ وظيفة اللغة La Fonction De La Langue

ـ التقطيع المزدوج La Double Articulation

ـ مفهوم الملاءمة Pertinence

ـ الاقتصاد اللغوي Economie De La Langue

١ـ وظيفة اللغة La Fonction De La Langue

كان أول ماركز عليه "أندريه مارتينيه" في أبحاثه ودراساته هو الوظيفة الأساسية للغة وهي التواصل، وهو مفهوم استقاه من حلقة براغ، وتتحقق هذه الوظيفة داخل المجتمع الذي يتكلمها، فاللغة بهذا المعنى أداة يستعملها أبناء المجتمع الواحد في بيئة معينة، بغية تحقيق تواصل فيما بينهم، غير أنّه إذا كان التواصل هو الوظيفة الجوهرية للغة إلا أن مارتينيه "لا ينفي بقية الوظائف التي تؤديها اللغة، بل يقرّ بها ويعتبرها ثانوية، كما يرى أن اللغة ليست نسخا للأشياء ونقلا آليا لها، بل هي بنى منظمة ومتراصة ومتكاملة، يتطلّع المتكلّم من خلالها إلى عالم الأشياء والأحاسيس، وهو ما ينتج الخبرة الإنسانية"(٣٣).

ويرى مارتينيه –كغيره من البنيويين– أنّ اللغة بنية تتكون من عناصر لغوية مختلفة، يؤدي كل عنصر منها وظيفة معينة تسهم هذه الوظيفة في تأمين استمرار الوظيفة الجوهرية وهي التواصل(٣٤).

كما تتحدد طبيعة التركيب الوظيفي انطلاقا من الصلات والعلاقات القائمة بين هذه العناصر، وعلى رأسها المونيمات (les monémes). وهي الوحدات الصغرى الدالة. وفضلها الوظيفيون على مصطلح الكلمة، لما تحتويه من دقة واستيفاء للدلالة الصحيحة على المعنى. وهذا ما صرح به أندريه مارتينيه عندما قال:"إن ما ندعوه كلمة هو على الأغلب، وبتعابير وظيفانية مونيم وحيد أو مصحوب بكيفياته (أي بمحدداته التي لا يمكن تحديدها) وبميزات وظيفته إذا تأخرت هذه الكيفيات وهذه العناصر الوظيفية عنه في السلسلة(٣٥).

ولا تقتصر وظيفة العناصر اللغوية على العلاقات الموجودة بينها، بل –أيضا– على موقع كل عنصر في البنية اللغوية. وهذا يعني أن المونيمات يجب أن تنتظم انتظاما صحيحا حتى تظهر كل وظيفة تركيبية لكل مونيم.

وقد جعل مارتينيه التركيب الإسنادي هو نواة الجملة، والتركيب الإسنادي كما هو معلوم يتكون من مسند (حكم) ومسند إليه (محكوم عليه)، وهذا التركيب هو تركيب مستقل لأنه يدل بنفسه على وظيفته، أما بقية العناصر فمتعلقة به وهي فضلات تضاف لتحديد الزمان

والمكان أو لتخصيص أحد عناصر الإسناد، فإذا حذفناها لا تختل الجملة، إذ إن الوقف ممكن بعد التركيب الإسنادي(٣٦).

غير أن هذه الوحدات الخارجة عن التركيب الإسنادي لا يؤثر حذفها على نواة الجملة، ولا يمكن الاستغناء عنها في كلّ الأحوال. إذ إنها تسهم في تحديد المعنى الكلّي الشامل للجملة ويكن تقسيم هذه الوحدات أو الألفاظ إلى ثلاثة أقسام.

أ. اللفظة المستقلة : Le monéme autonome

ويتمثل هذا القسم في الوحدات التي تستقل برتبتها داخل الجملة، وبالتالي فهي وحدات لا تكتسب وظيفتها من علاقتها مع بقية الوحدات، بل وظيفتها متضمنة في بنيتها. وهذا مثل ظروف الزمان كأمس Hier حيث يمكن أن تقع في مواقع مختلفة إلاّ أنها تؤدي الوظيفة نفسها.

ب. اللفظة التابعة : Le monéme dependant

تمثل هذه اللفظة الوحدات التي تبقى دائما متصلة بغيرها حتى تحدد وظيفتها داخل الجملة، فهي وحدات لا تستقل بنفسها وإنما تبقى دائما تابعة، فالاسم المجرور –مثلا– في العربية مقترن بحرف الجر الذي لا بد أن يوجد حتى يتبيّن الاسم المجرور من غيره. وكذا الشأن بالنسبة للمضاف إليه، إذ يلزم أن يسبقه مضاف.

ج. اللفظة الوظيفية : Le moné me Fonctionnel

سميت هذه اللفظة بالوحدة الوظيفية لأنها تحدد وظيفة عناصر أخرى، وهي وحدات لا وظيفة لها في حدّ ذاتها، إلاّ أنها تكسب ما يأتي بعدها وظيفة معينة، وهذا مثل أدوات النصب والجر وما شابهها في العربية.

٢. التقطيع المزدوج La Double Articulation

إذا كانت اللغة عند مارتينيه نظام تواصلي، يتم من خلاله إيصال الأفكار والمشاعر إلى الآخرين، فإن هذا النظام اللغوي يختلف عن غيره من بقية الأنظمة التواصلية، بأنه قابل إلى التقطيع إلى مستويين: مستوى الوحدات الدالة، وتتمثل في المونيمات (les monémes) والمستوى الثاني مستوى ناتج عن تقطيع هذه المونيمات إلى وحدات أصغر هي الفونيمات أو الصواتم.

يقول مارتينيه:" اللغة أداة تواصل تحلل بواسطتها التجربة البشرية تحليلا يختلف من مجموعة إلى أخرى عن طريق وحدات ذات دلالة، وشكل صوتي هي اللفاظم (monémes) وتقطع هذه اللفاظم بدورها إلى وحدات مميزة متتالية هي الصواتم (phonémes) وعددها محدود في كل لغة، كما أنها تختلف أيضا من لغة إلى أخرى، من حيث طبيعتها وعلاقة بعضها ببعض"(٣٧).

وهذا التقطيع يمكن إجراؤه على جميع اللغات الطبيعية وإن اختلف في إجراءاته وتحديد عناصره من لغة إلى أخرى وبهذا فإن "اللسان البشري أداة تبليغ يتم وفقه تحليل التجربة البشرية بكيفية مختلفة عند كل قوم إلى وحدات ذات محتوى دلالي ومركب صوتي هي الكلمات، وأنّ المركب الصوتي ينقطّع بدوره إلى وحدات متمايزة متوالية هي الأصوات وتكون بعدد محدود في كل لسان إلاّ أنّ طبيعتها وعلاقتها المتبادلة تختلف من لسان إلى آخر"(٣٨).

غير أنه إن كانت جميع اللغات الطبيعية ثابتة للتقطيع إلاّ أنّه يوجد بعض الحالات التي يستعصي فيها التقطيع كأن يكون –مثلا– "الاستفهام بالتنغيم دون الأداة للتمييز بين الإخبار والاستفهام ففي قول أبي ربيعة:

ثُمَّ قالُوا تُحبُّها قلتُ بهْراً: عدد النُّجوم والحصى

فقد أغنى التنغيم الاستفهامي في قوله (تحبّها) عن أداة الاستفهام، فحذفت الأداة، وبقي معنى الاستفهام مفهوما من السياق العام للخطاب"(٣٩).

٣.مفهوم الملاءمة Pertinence

ينطلق "أندريه مارتينيه" لتحديد مفهوم الملاءمة، من أن كل علم له سماته الخاصة التي تتلاءم والبحث فيه، "ففي علم الحساب على سبيل المثال، نعتبر الأعداد بمثابة السمات المناسبة فيما يتعلق بهذا العلم، وفي علم الهندسة يكون التركيز على الأشكال الهندسية التي هي السمات الواجب دراستها" (٤٠).

والشأن نفسه بالنسبة للسانيات، إذ يجب أن نستخرج الوحدات التي تلائم البحث والتحليل، وتهمل بقية السمات التي لا فائدة منها في الدراسة، ولا تسهم في تحديد مستوياتها، وعليه "فإنّ اختيار وجهة النظر الوظيفية يستمد من الاعتماد الراسخ بأنّ كل بحث علمي يتأسس على إثبات ملاءمة ما، وأن الملاءمة التواصلية هي التي تسمح بشكل أفضل فهم طبيعة دينامية اللغة" (٤١).

٤ .الاقتصاد اللغوي Economie De La Langue

لاحظ "مارتينيه" أثناء دراساته اللغوية أن المتكلم يستعمل مفردات قليلة، إلاّ أنه يستطيع من خلالها نقل معان عدة فحاول استثمار هذه الفكرة في مجال التطور اللغوي، وطبق إيّاها على النظام اللغوي بجميع مستوياته، وفي مقدمتها المستوى الصوتي، موضحا معنى الاقتصاد في هذا المستوى "بأنّه الاكتفاء بالقليل من الحروف، مع إمكانية تغطية كل حاجات التعبير" (٤٢).

مع العلم أن هذه الحروف القليلة المعبّرة عن معان كثيرة، أو الملبية لأغراض، لا يوجد بينها تعارض أو التباس يقول "مارتينيه": "إن عدد العمليات اللفظية البسيطة التي لا يمكن أن تلتبس بعضها ببعض في نظام صوتي قليل. ويمكن أن يزداد عددها بتركيبها بعضها في بعض وخاصة التي تقبل التركيب.. إذ لا تمانع العمليات الأخرى وذلك مثل اهتزاز الأوتار الصوتية، فإنها لا تعارض أبدا حركات الشفتين أو حركات اللسان، ولا تمنع الصوت الذي يحدث هذا الاهتزاز إدراك السامع لاحتكاك الحروف الرخوة" (٤٣).

٥- الوظيفية عند "فيرث" Firth (١٨٤٥-١٩١٢)

يعتبر فيرث من أبرز أعلام مدرسة لندن اللسانية، بما تركه من بصمات ظلت جلية عند تلامذته، وبخاصة المنحى الوظيفي الذي نحاه، إذا أضفى على الدراسة الوظيفية صبغة جديدة تركزت على المعنى بالدرجة الأولى، والعوامل التي تؤدي إلى التأثير فيه وتغييره.

رأى "فيرث" أن المعنى لا يمكن "أن ينكشف إلاّ من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة" (٤٤).

غير أنّ مفهوم السياق عند "فيرث" لا يقتصر على الاستعمال اللغوي للكلمة فحسب: أي مراعاة ما يجاور الكلمة من ألفاظ. بل يتعداه إلى الاعتناء بالمواقف الثقافية، العاطفية والاجتماعية المختلفة والتي تنتج فيها اللغة، وهو ما اصطلح عليها بسياق الحال "context of situation"

وهو مفهوم استعمله العالم البولندي الأصل "مالينوفسكي" الذي كان أستاذ للأنثروبولوجيا في لندن.

وطور هذا المفهوم "فيرث" مصرحا أن "اللغة يجب أن تدرس كجزء من المنظومة الاجتماعية" (٤٥).

ولكي يتم دراسة المعنى داخل الجملة وتحليلها، حسب ما يقتضيه سياق الحال، لا بدّ أن تراعى مجموعة من المعايير منها ما لدى المتكلّم من مكانة اجتماعية، ومرجعية معرفية وثقافية، وهل المتكلم ذكر أم أنثى، وهل هو صغير أم كبير إلى غير ذلك من هذه الفوارق.

كما يؤخذ بعين الاعتبار –أيضا- الكيفيات النطقية المختلفة وما يصحبها من نبر أو تنغيم أو استعمال إشارات معينة. وكذلك ما يتصل مباشرة بالحدث اللغوي من الأمور المادية.

وتدخل شخصية المستمع –أيضا- في تحديد سياق الحال، فقد يتأثر مستمع بكلام لا يتأثر به آخر.

"وهكذا يتبيّن أن مفهوم المعنى عند "فيرث" ليس شيئا في الذهن، أو علاقة متبادلة بين اللفظ وصورة الشيء الذهنية، وإنّما هو مجموعة من الارتباطات والمميزات اللغوية التي تتشكّل في موقف لغوي يحددها السياق، فالمعنى إذا كل مركب من مجموعة من الوظائف اللغوية الصوتية والنحوية والمعجمية، وهذا هو السياق اللغوي وينضاف إليه سياق الحال المتمثل في الظروف الاجتماعية والنفسية والثقافية للمتكلّم والمشتركين" (٤٦).

ويمكن إجمال مستويات تحليل المعنى عند "فيرث" ومن تبعه في هذا المخطط(٤٧).

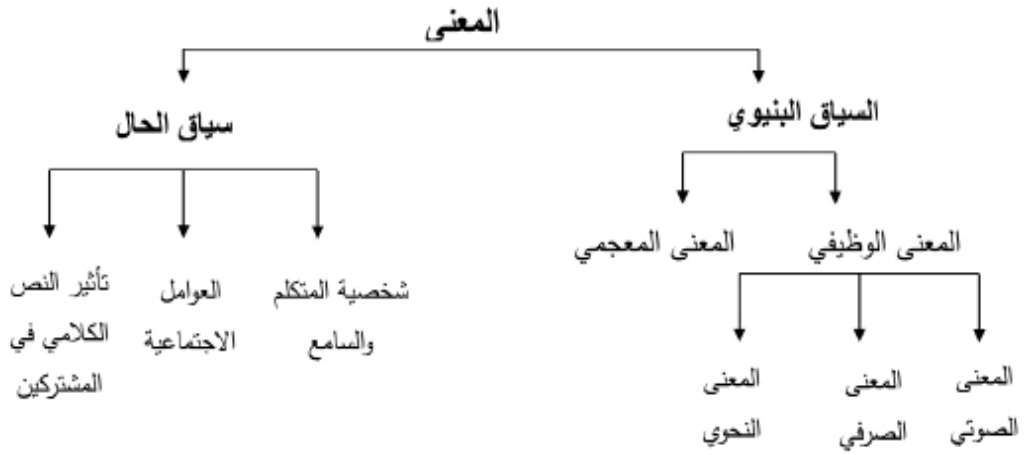

خاتمة:

إن ما يمكن أن نصل إليه بعد عرض أهم مبادئ النظرية الوظيفية ومراحل تطوّرها مع اللّسانيين الغربيين ما يلي:

ـ الانطلاق الأول لهذه النظرية، بدأ من مفهوم "النظام اللغوي" وهو المفهوم الذي أرسى دعائمه، وأسّس له "فرديناند دو سوسير"، ولا يمكن أن تتحقّق الوظيفة التواصلية، إلاّ من خلال هذا النظام، ولذلك فالبحث في هذه الوظيفة يستدعي بالضرورة، البحث في مستويات وعناصر النظام اللغوي، لأنّ الوظيفة الكلّية تتحقّق بتضافر وتكامل الوظائف الجزئية.

ـ يشمل التحليل الوظيفي جميع المستويات اللغوية، بداية من المستوى الصوتي(الوحدة الصوتية) فالمستوى الإفرادي (الكلمة)، فالمستوى التركيبي(الجملة والنص)، وكذلك المستوى الدّلالي والتّداولي (المعنى وما يتعلّق به من سياقات ومقامات مختلفة)، كما يركّز على عناصر الخطاب اللغوي، التي أهمّها المُخاطِب والمُخَاطَب.

ـ تسعى النظرية الوظيفية، وتطمح إلى أن تكون نظرية لغوية كاملة، وذلك بتركيزها على الوسيلة والهدف، أو بمعنى أدق اللغة والتواصل.

الهوامش:

(١) ابن منظور ، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧، المجلد السادس، مادة وظّف، ص٤٦٠.

(٢) Jean Dubois et autres، dictionnaire de linguistique، libraire larouse، paris، p٢١٧.

(٣) ميلكا إفيتش ، اتجاهات البحث اللساني ، ترجمة : سعد عبد العزيز مصلوح ووفاء كامل، الهيئة المصرية العامة لشؤون المطابع الأميرية، ط٢، ١٩٩٦، ص٢٤٧.

(٤) عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث، مجلة اللسانيات، الجزائر، ١٩٩٧، العدد٠٧، ص٠٨.

(٥) عبد القادر المهيري وآخرون، أهم المدارس اللسانية، المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ط٢، ١٩٩٠، ص٤٠.

(٦) جفري سامسون، مدارس اللسانيات التسابق والتطور، ترجمة: محمد زياد كبة، جامعة الملك سعود، الرياض، (د.ط)، ص١٠٦.

(٧) ميلكا إفيتش، إتجاهات البحث اللساني، ص٢٤٨.

(٨) نقلا عن: ميشال زكرياء ، الألسنية (علم اللغة الحديث) ، المبادئ و الأعلام ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٣، ص٢٣٦.

(٩) عبد القادر عبد الجليل، علم اللسانيات الحديثة، دار الصفاء للنشر والتوزيع، عمان، ط٢، ٢٠٠٢، ص٠٨.

(١٠) محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨، ص٣٦.

(١١) ميشال زكرياء، الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام، ص٢٣٦.

(١٢) جفري سامسون، مدارس اللسانيات التسابق والتطور، ص١١١.

(١٣) فاطمة الطبال بركة ، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون –دراسة ونصوص–، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣، ص٣١.

(١٤) أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط١، ١٩٩٦، ص١٠١.

(١٥) عبد الرحمن الحاج صالح ، مدخل إلى علم اللسان الحديث ، مجلة اللسانيات ، العدد ٠٧، ص١٠.

(١٦) عصام نور الدين، علم وظائف الأصوات اللغوية، الفونولوجيا، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص٦٤.

(١٧) عبد الرحمن الحاج صالح ، مدخل إلى علم اللسان الحديث، مجلة اللسانيات، العدد٠٧، ص١٣.

(١٨) محمود فهمي الحجازي، مدخل إلى علم اللغة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨، ص٣٧.

(١٩) عصام نور الدين، علم وظائف الأصوات اللغوية، الفونولوجيا، ص٦٧.

(٢٠) فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، ص١٨، ١٩، ٢٠.

(٢١) المرجع نفسه، ص٢١.

×)) هناك من ترجمه:" مبادئ في اللسانيات العامة".

(٢٢) فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون،، ص٣١.

(٢٣) النظرية الألسنية، ص٤٢.

(٢٤) ميشال زكرياء، الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام، ص٢٥٢.

(٢٥) فريناد دوسوسير، محاضرات في اللسانيات العامة، ترجمة يوسف غازي ومجيد نصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، (د.ط)،ص٢٣.

(٢٦) ميشال زكرياء، الألسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٥، ص٨٥.

(٢٧) النظرية الألسنية، ص٦٦.

(٢٨) أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٢، ص١٤٩.

(٢٩) خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة، الجزائر، ٢٠٠٢، ص٣٠.

(٣٠) النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، ص٦٧.

(٣١) خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، ص٣١.

(٣٢) ميشال زكرياء، الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام، ص٢٥٢.

(٣٣) نعمان بوقرة، المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، ص١٠٤.

(٣٤) Andre martimet، elements de linguistique generale، libraire armand colin، paris، ١٩٧٠، p٠٩.

(٣٥) أندريه مارتينيه ، وظيفة الألسن وديناميتها، ترجمة نادر سراج، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٦، ص١٠٠.

(٣٦) خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، ص١٠٦.

(٣٧) عبد القادر المهبري، نظرات في التراث اللغوي العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣، ص٢٣٣.

(٣٨) سعدي الزبير، العلاقات التركيبية في القرآن الكريم، دراسة وظيفية، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، ص٢٤.

(٣٩) أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٩، ص١١٢.

(٤٠) ميشال زكرياء، الألسنية (علم اللغة الحديث)، المبادئ والأعلام، ص٢٥٦.

(٤١) أندريه مارتينيه، وظيفة اللسن وديناميتها، ص٩٧.

(٤٢) عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث، مجلة اللسانيات، ص٢٧.

(٤٣) المرجع السابق، ص٢٨.

(٤٤) أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط٥، ١٩٩٨، ص٦٩.

(٤٥) يحي أحمد، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد العشرون، العدد الثالث، ص٨٢.

(٤٦) مهدي أسعد عرار، جدل اللفظ والمعنى، دراسة في دلالة الكلمة العربية، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٢، ص٤٠.

(٤٧) المرجع نفسه، ص٤٢.